

رسالة "الأمير عبد القادر" إلى رئيس الوزراء البريطاني (سنة 1840)

أ/ حرشوش كريمة
جامعة ابن خلدون/ تيارت

قبل الحديث عن محتوى الرسالة سواءا بتحليلها أو نقدها لابد أن نضعها في إطارها الزمني، وأن نتعرف على صاحب الرسالة المتمثل في شخص الأمير عبد القادر الجزائري، حتى نتمكن من الوقوف على الملابسات والظروف التي كتبت من أجلها الرسالة، وكذا الأهداف. لأن مثل هذا الصنيع من شأنه أن يساعدنا على الفهم الجيد لمحتواها ومراد صاحبها.

الرسالة التي سنقوم بدراستها، فهي تتمثل في مراسلة بعث بها الأمير عبد القادر إلى رئيس وزراء بريطانيا سنة 1840م، أما المكان الذي كتبت فيه فهو الجزائر، بالضبط في أي منطقة لا يمكننا تحديد تواجد "الأمير عبد القادر" في هذه الفترة لأنه مع أواخر 1839م كان منشغلا بالدفاع عن المدينة ومليانة وشرشال وحتى بعد سقوط هذه المدن فإنه بقي مرابطا ومحاصرا للحاميات الفرنسية التي تمركزت بها.¹

أما عن صاحب الوثيقة فهو: "عبد القادر بن محي الدين. بن مصطفى. بن محمد. بن مختار. بن عبد القادر. بن أحمد المختار. بن عبد القادر. بن أحمد المشهور بابن خدة. بن محمد. بن عبد القوي. بن علي. بن أحمد القوي. بن خالد... بن إدريس الأكبر. بن عبد الله المحصن. بن الحسن المثنى. بن حسن السبط. بن علي. بن أبي طالب. وأمه فاطمة الزهراء بنت سيد الوجود محمد صلى الله عليه وسلم".²

ولد في 25 سبتمبر 1807م في قرية القيطنة، وأمه السيدة "زهراء" بنت عبد القادر بن خدة، تلقى دروسه الابتدائية في مسقط رأسه، ختم القرآن في سن الحادي عشر، وأصبح فارسا، برع في العلوم التاريخية والفلسفية والفقهية، وأصبح ينتقل من أجل تحصيل علمه، وكانت كل رحلاته علمية، حج مع والده، وبويع أميراً لإمارة

البلاد بعد احتلالها من طرف العدوان الفرنسي 1830م، وتمت البيعة الأولى في 27 نوفمبر 1832م، والبيعة الثانية 4 فبراير 1833م.³

كان عبد القادر قائدا سياسيا وعسكريا ودبلوماسيا محنكا قاوم تقدم العدو الفرنسي، وهو مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة ورمز المقاومة الجزائرية ضد الاضطهاد الفرنسي، خاض عدة معارك ضد الاحتلال للدفاع عن الوطن، وبعدها نفي إلى دمشق وتوفي فيها 26 ماي 1883م.⁴

ما يمكن قوله عن الرسالة أنها ذات طابع تاريخي امتزج فيه السياسي بالإيديولوجي والاقتصادي. أما النص فهو بسيط الكتابة، والأسلوب واضح المعنى والأهداف، إلى جانب ذلك فهو يكتسي صبغة سياسية دبلوماسية، لما تتضمنه الرسالة من أفكار ومفاهيم أميرية في فترة السلم والهدنة مع الفرنسيين [معاهدة التافنا].

أما إذا عدنا إلى اللغة التي كتبت بها هذه الرسائل فنجد أن الأسلوب واللغة لا تليق بمقام الأمير عبد القادر، فحسب معرفتنا للمستوى الفكري والثقافي الأميري فهو ذو مستوى عال، إذ لا يتكلم باللهجات العامية كما وجدناها في إحدى رسائله، لأن ثقافته لم تكن على مستوى القرية، ولكنها كانت على مستوى عال، والدليل على ذلك قصائده الشعرية، وثقافته العديدة بجامعة ومعاهد بفاس والزيتونة ووهران وحفظه للقران وغيرها، ففي أسلوبه ركافة في التعبير، فهل من المعقول أن يخفض الأمير من لغته العربية التي يكتب بها قصائده الشعرية، ويتكلم بها إلى مستويات هابطة، ويجعلها بهذه الركافة ليسىء إلى لغته من أجل أن يفهمها رئيس وزراء إنجليزي سواء هو أم صهره "ابن التهامي" الذي كان أيضا شاعرا وأديبا.

فبمقارنة أسلوبه في هذه الرسالة مع أسلوبه أثناء مراسلاته مع الجنرال ديميشال التي جمعها الدكتور "عبد الحميد زوزو" في كتابه: "مراسلات الأمير عبد القادر مع الجنرال ديميشال ووثائق خاصة بتاريخ الجزائر في عهد الأمير"، لاحظنا اختلافا في الأسلوب والتعبير، فأسلوبه أثناء مراسلاته مع ديميشال أعلى منه أثناء مراسلاته للإنجليز وهذا ما يثير الشك في صحة الوثيقة. أما عن الخط فهو يشبه خط الأمير عبد القادر كثيرا، لدرجة أنك لا تشك فيه إن زور أو حرف، حتى الختم فهو ختم الأمير عبد القادر، فربما تكون هذه الرسائل كلها أصلية بدليل أنها تحمل خاتمه

المعروف أم أنها نسخ للأصل جمع بها "مارسيل إمريت" (Marcel Emerit) ووضعها في ملف خاص، وسجل خاص بالأرقام والتواريخ.*

لقد تزامنت هذه الرسالة مع عقد معاهدة التافنا في 30 ماي 1837م بين الأمير عبد القادر والجنرال بيجو، بمنطقة وادي التافنا، والتي تضمنت خمس عشر بنداً على وثيقة، بتوقيع الطرفين من نسختين عربية وفرنسية، كما تزامنت مع أحداث خارجية وسريعة تخص المسألة الشرقية فقد مثلت جوهر الخلافات السياسية بين الدول العظمى آنذاك لفقدان الثقة بين المسؤولين وما قبل الدولة العثمانية للتدخل في شؤونها وبذلك ازدياد تعقد المسألة الشرقية.

ففي بريطانيا توفي الملك "ويليام الرابع" (William IV) الملقب بـ"الملك البحار" (the Sailor King) ملك المملكة المتحدة سنة 1837م، وخلفته الملكة "ألكسندرا فكتوريا" التي ستحكم البلاد 64 سنة-1837، 1901- واشتعال نار الثورة في كندا، وتوتر العلاقات بين بريطانيا وفرنسا.

أما في فرنسا فقد انقسم أنصار النظام واختل التوازن السياسي وتسلمت مقاليد الحكم أربع وزارات، وبالتالي فما طرحته هذه الأوضاع عجل بضرورة عقد هدنة لكي تضمن فرنسا استقرارها على الصعيدين الداخلي والخارجي. ففي أثناء هذه الفترة رأى الأمير أن يستغل توتر العلاقات بين الدولتين العظميتين، ذلك التوتر الذي نجم خصوصاً عن معاهدة لندن في 15 جوان 1840م والتي أقرت بموجها بريطانيا والنمسا وروسيا تسوية مسألة الشرق الأوسط في غياب فرنسا. ويستغل فرصة الصلح لغرض إراحة جيوشه، وتوفير السلاح لمحاربة أعداء الدين، وعليه قام باتصالات في الداخل والخارج.⁵

وعليه أخذ بالمبادرة من أجل الكتابة إلى الإنجليز بواسطة قنصلهم المقيم بمدينة طنجة دورمون هاي (Drummond Hay) عن طريق نيكولا مينوتشي (Nicolas Manucci) ابن قنصل إنجلترا ببنزرت بتاريخ 11/04/1840م،⁷ غير أن إنجلترا كانت قلقة على سلامة الطرق البحرية والمواصلات مع الهند والتي أصبحت مهددة، لذلك اتخذت موقفاً من ذلك، بإثارتها شعور الاغتيال والنقمة ضد فرنسا ونجحت إثر ذلك من عقد معاهدة لندن، أما فرنسا فقد استئننت من المشاركة

كما ذكرنا سابقا، لأن المعاهدة كانت ترمي إلى إرجاع فرنسا لحدود ما قبل 1792م.

لقد كانت للأمير عبد القادر صلات دولية واسعة ومكثفة وعديدة ومتنوعة من ساسة العالم، وقادة عسكريين وسياسيين ومفكرين وحضي بالتقدير والاكبار من طرف الجميع بفضل مواقفه البطولية الخالدة في الحرب والسلام، وسعة اطلاعه وتفهمه للمشاكل وعمق ثقافته وتفكيره وبعد نظره في القضايا والأبعاد، فخلال كفاحه ومقاومته للاستعمار الفرنسي بالجزائر راسل الملك والحكومة الإنجليزية وطلب منهما التأييد والمساعدة المادية بعد أن شرح لهما شراسة جيش الاحتلال الفرنسي وخداع قاداته،⁸ كما قام بعرض ميناء تنس للحكومة من أجل استثمارها بالمنطقة مقابل حصوله على الأسلحة والذخائر الحربية،⁹ لأن كثرة النزاعات والحروب بين جيش الأمير والجيش الفرنسي وتطور المسألة لدى المسؤولين الفرنسيين، إضافة إلى الاهتمام البالغ الذي أظهره المستعمرون بالجزائر حفاظا على امتيازاتهم بأي ثمن، ثم قلة الذخائر الحربية لجيش الأمير عبد القادر، وسوء التفاهم بين أحمد باي والأمير، كل هذه الظروف والعوامل خلقت اختلالا بموازين القوى لصالح فرنسا، فتمكنت هذه الأخيرة من عقد معاهدة التافنا 1837م مع الأمير عبد القادر.¹⁰

كان هدف فرنسا من تلك المعاهدة، تسكين الضفة الغربية للجزائر لتجد حريتها المطلقة للقضاء على أحمد باي في الشرق.

أما من جهة الأمير عبد القادر فقد كان يهدف إلى إعادة تطوير جيشه وإراحته، إضافة إلى أنه كان يخطط لتوفير السلاح لمحاربة العدو الفرنسي، وعليه قام باتصالات بمكاتبة الأمراء والحكام والرؤساء والوزراء والسياسيين والدبلوماسيين وغيرهم من ساسة العالم سوآء في الداخل أو في الخارج، فقد كان يتمنى ربط علاقات جيدة بالشرق والغرب.

وفي أحد رسائله التي بين أيدينا كتب إلى الحكومة الإنجليزية يبلغها بالهدنة التي وقعت بينه وبين الفرنسيين يذكر فيها: ".... فإنه وقع بيننا وبين دولة الفرنسيين شرط مدة من نحو السنة، في شأن مملكة الجزائر، فإن سلمنا لهم البعض من الوطن وجعلنا بيننا وبينهم حدودا وحفظنا بعض المراسي لنا وكان

مرادنا بعد ذلك أن نكاتبكم ونعرف دولتكم ونعطوكم مرسى مثل تنس أو غيرها مما هو في يدنا تبيعون فيها وتشترون ما تحتاجون من الحب والقمح وغير ذلك، ونحن نأخذ منكم ما نحتاج إليه. ¹¹

وفي رسالة ثانية بعث أيضا بها للإنجليز يكاتبه فيها قائلا: " فإن الفرنسيين طالما صادقناهم فلم يصدر منهم إلا الخدع والخلاف وقلة الوفاء وعدم [كذا] والانصاف وأنكم أهل وفاء وعهد فأحببنا صحبتكم وخلطتكم ومبايعتكم".

لقد شرح الأمير عبد القادر لرئيس وزراء بريطانيا خيانة الفرنسيين وعدم وفائهم بالعهود، وطلب منها أن تدعمه وتؤيده بالأسلحة مقابل منحها ميناء تنس، هادفا من وراء ذلك ربط علاقات تجارية منتظمة مع الحكومة البريطانية تركز على هذا الميناء¹² في إطار تموين الجيش الشعبي الوطني ومساندة المقاومة الجزائرية ضد قوات الاحتلال الفرنسي ليتمكن من شراء الأسلحة والذخيرة الحربية، للاستفادة من النفوذ البريطاني بمضيق جبل طارق واحتكارها للتجارة الخارجية، كما كان يسعى لإثارة التنافس الاستعماري الأوربي بالمنطقة والعمل على توتر العلاقات بين البلدين، لتحقيق مكسب حربي يستفيد منه لتنظيم صفوف جيشه.

بالرغم من أن الحكومة الإنجليزية كانت تعلم جيدا أن النفوذ الفرنسي سيزداد في البحر الأبيض المتوسط، في حالة احتلال محمد علي باشا والي مصر الواقع تحت نفوذ الفرنسيين للجزائر، وما من شك أن تفوق إنجلترا في مضيق جبل طارق ومالطا سيعرض للخطر بازدياد النفوذ الفرنسي بالبحر المتوسط، ضف إلى ذلك فإن العلاقات الفرنسية البريطانية ذات طابع مصلي توسعي في أوروبا، لذلك لم تهتم بريطانيا للتدخل في الشؤون الجزائرية نظرا لأطماعها ببلجيكا وقضية البرتغال، لذلك عملت على تأمين التعاون الفرنسي في هاتين القضيتين لصالح النفوذ الإنجليزي بأوروبا مقابل تخليها عن أطماعها في شمال إفريقيا.¹³

وبتفكير الأمير تسليمه ميناء تنس للدولة الإنجليزية وتفضيلها على بقية الأمم بهدف تسهيل عملية التموين بالذخيرة الحربية، وضمان هذه المؤونة التي يحتاجها في مقاومته ضد الاحتلال الفرنسي، إضافة إلى إيجاد مؤيد له وكسب دولة أوروبية تقف إلى جانبه على الصعيد السياسي، إذا ما اضطر لمواجهة العدو، بالرغم من أنه كان على علم تام بما كان يجري بفرنسا وكذلك الدول الأوروبية الأخرى.¹⁴

ولكن هذه المساعي الأميرية في فتح سوق تجارية جديدة ليستفيد منها الجيش لم تحقق لأن بريطانيا تخوفت على مصالحها بالهند كما أنها كانت لها أطماع في مصر، فلم يستجيبوا لنداءات الأمير عبد القادر، ولم تقبل عروضه¹⁵ لأنها تخوفت من زج نفسها في معركة سياسية مع فرنسا بخصوص الجزائر.

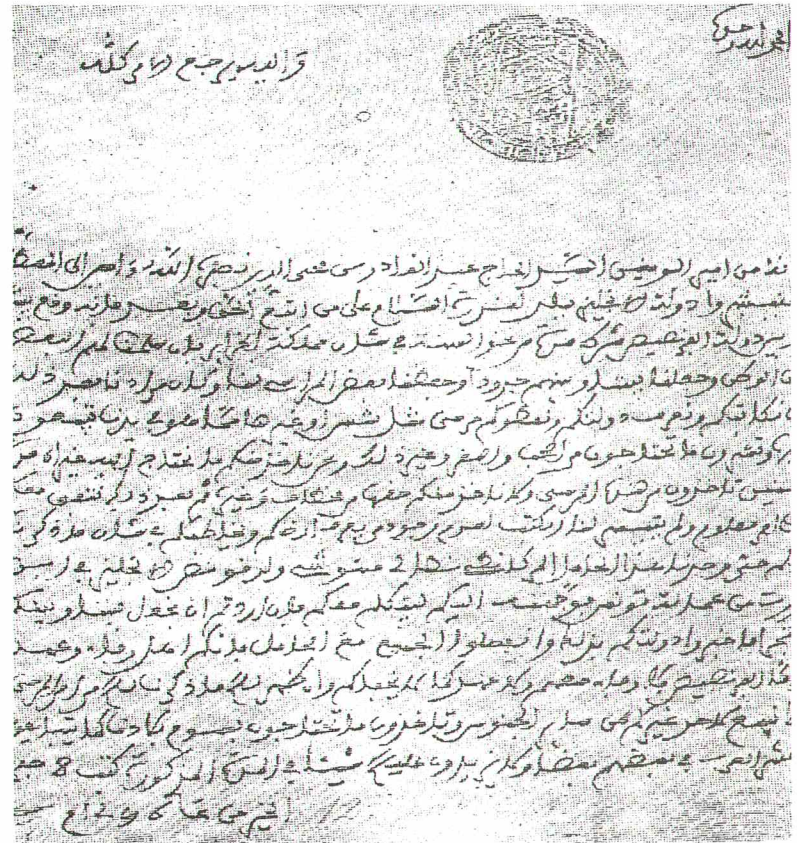
إذن لقد عرض الأمير كل ما أمكنه لطلب المساعدة من الإنجليز ولكنه قوبل بالرفض بسبب تخوف الإنجليز من اصطدامها السياسي مع الفرنسيين، وتضارب المصالح الأوروبية جعلت من الحكومة البريطانية ترفض تأييد الأمير لأن ذلك سيهدد مصالحها التوسعية وأطماعها في أوروبا وآسيا فعملت على كسب ثقة الفرنسيين إلى صفها باعتبارها قوة عالمية على الرغم من رغبتها في التوسع بالشمال الأفريقي، فما كان على الأمير إلا أن يحاول إقامة اتصالات مع السلطان عبد المجيد العثماني عن طريق بريطانيا يطلب إليها المساعدة.

خاتمة:

هكذا كان الأمير مصدرا لمراسلات عديدة وكثيرة ومكثفة إلى جهات كثيرة من العالم، ومع شخصيات مختلفة المشارب والاتجاهات، وفي مواضيع متنوعة ومتباينة عسكرية، سياسية، اقتصادية، ثقافية، دينية، واجتماعية.

ولا شك أن هذه المراسلات تؤلف في حد ذاتها تراثا هاما لتاريخنا الوطني بجوانبه المختلفة، ويبقى الجديد في هذه الوثائق وافرا سنكتشفه بعد اجتهاد ونباهة في القراءة، نخص بالذكر الباحثين المهتمين بحياة الأمير عبد القادر وبجوانب من تاريخ مقاومته الطويلة التي لم يتطرق إليها البحث بعد، وما أكثرها.

وأملنا وطيد في أن تعمل على كشف رسائل أخرى وتقارير في المستقبل، تضيف إلى تاريخ الأمير عبد القادر جوانب أخرى جديدة، وإلى تاريخنا الوطني رصيда آخر من الحقائق والمعلومات لأن العالم اليوم بحاجة لأفكار الأمير عبد القادر على الحروب والفساد التي انتشرت في العديد من البلدان لغياب ثقافة الحوار بين الحضارات، وإقامة علاقات دبلوماسية مبنية على التعاون والتفاهم والتشاور السلمي، متوقف على مبدأ التعايش وحوار الديانات والحضارات.



- رسالة وجهها الأمير عبد القادر إلى رئيس الوزراء البريطانية في 11 أبريل 1840م

O;3/43.F

الوثيقة رقم 01

الحمد لله وحده. وإليه يرجع الأمر كله

".....إنه من أمير المؤمنين السيد الحاج عبد القادر بن محي الدين نصره الله وأمين إلى المعظم [كذا] دولة الانجليز، لندرة السلام على من اتبع الحق والهدى، وبعد: فانه وقع بيننا وبين دولة الفرنضيص شرط مدة من نحو السنة بشأن مملكة الجزائر، فان سلمنا لهم البعض من الوطن وجعلنا بيننا وبينهم حدودا وحفظنا لبعض المرامي لنا، وكان مرادنا بعد ذلك أن نكاتيكم ونعرف دولتكم ونعطوكم مرسى مثل تنس، أو غيرها مما هو في يدنا تبيعون فيها وتشترون ما تحتاجون من

الحب والقمح وغير ذلك، ونحن نأخذ منكم ما نحتاج إليه، غير أن مدة سنين تأخذون من هذا المرسى ولا تأخذ منكم حقها من مخطاف وغيره، فيما بعد ذلك نتفق معكم على أمر معلوم ولم يتيسر لنا الكتب لعدم وجود من يعرف ارضكم ويخاطبكم في شأن من ذكرنا لكم، حتى وجدنا هذا الحامل المركانطي نصالي مينوتشي ولد قنصل الانجليز ببزرت من عمالة تونس، فوجهناه اليكم ليتكلم معكم فإن أردتم أن نجعل بيننا وبينكم متجرا فأخبروا دولتكم بذلك، وانفصلوا الجميع مع الحامل، فإنكم أهل وفاء وعهد. وأما الفرنسيس فلا وفاء معهم ولا عهد، كما لا يخفى لكم وإن ظهر لكم ما ذكرنا لكم من أمر المرسى فلا نبيع لأحد غيركم من سائر الجنوس، وتأخذون ما تحتاجون بسوم بلادنا كما يتبايعون معشر العرب في بعضهم البعض ولا يزيدون عليكم شيئا في المرة المذكورة. "...

كتب في 08 صفر 1256 هـ

الهوامش:

- 1- عبد القادر دحدوح، استحكامات الأمير عبد القادر العسكرية 1836م-1842م، دراسة تاريخية أثرية تحليلية، موفم للنشر، الجزائر، 2008، ص. 61
- 2- مصطفى بن التهامي، سيرة الأمير عبد القادر وجهاده، تحقيق وتقديم وتعليق، يحي بوعزيز، دار البصائر للنشر والتوزيع، 2009، ص. 47.
- محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، المطبعة التجارية، ج. 2، الإسكندرية، 1903، صص 297-307.
- الأمير عبد القادر الجزائري، مذكرات الأمير عبد القادر، سيرة ذاتية كتبها في السجن سنة 1849، تحقيق: محمد الصغير بناني وآخرون، شركة دار الأمة، ط. 7، 2010، ص. 46.
- بديعة الحسني الجزائري، الأمير عبد القادر، حقائق ووثائق بين الحقيقة والتحريف، دار المعرفة، الجزائر، 2008، ص. 13
- 3- حرشوش كريمة، جرائم الجنرالات الفرنسيين ضد مقاومة الأمير عبد القادر في الجزائر من خلال أدبياتهم 1832-1847 "نماذج"، تحت إشراف: صام منور، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، وهران، 2010/2009، صص 34-40.
- 4- علي بن عبد السلام التسولي، رسالة في أجوبة على أسئلة الأمير عبد القادر الجزائري، تحقيق وتعليق محمد البنعياي، تقديم: محمد أبيبا، ط. 1، مطبعة وراقه بلال، المغرب، 2014، صص 96-98.
- *- اكتشف دورمون هاي القنصل الإنجليزي المقيم بطنجة، أن مضمون معظم رسائل الأمير قد حرفت ترجمتها لأسباب مجهولة حتى اليوم. ينظر: - علي طابلات، اتصالات الأمير عبد القادر بالقنصلين البريطاني والأمريكي في المغرب (1835-1836)، أعمال ملتقى الأمير عبد القادر، 1998، طباعة وتوزيع دار الحكمة، الجزائر، ص. 74

- 5- إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م، ص. 213
- 6- بنزرت: مدينة ساحلية في الشمال من البلاد التونسية.
7 M Emérit, L'Algérie a l'époque d'Abdelkader, Edition Larousse, Paris, 1951, p295.
- 8- يحي بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ص. 231
- 9- يحي بوعزيز، الأمير عبد القادر ورائد الكفاح الجزائري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1983، ص. 176
- 10- صالح فركوس، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر 1925/1830، مديرية النشر لجامعة قالة، 2010، ص. 35
F - 11, 3/43, O
- رسالة من الأمير عبد القادر إلى رئيس وزراء بريطانيا بتاريخ 08 صفر 1256هـ/ 11 افريل 1840م.
- 12- إسماعيل العربي، مرجع سابق، ص. 213
- 13- أرجمند كوران، السياسة العثمانية اتجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر 1827-1847، نقله عن التركية عبد الجليل التميمي، الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس، 1974، ط2، ص. 51
- 14- عبد القادر بوطالب، الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، من الأمير عبد القادر إلى حرب التحرير، مقدمة بقلم: شارل روبير أجرون، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2010، ص. 100
- كان الأمير عبد القادر يترصّد أخبار الدول من طرف مبعوثيه الذين كانت لهم اتصالات مع عناصره المقيمة بمدينة الجزائر ووهران وخاصة في طنجة التي كانت مركزا كبيرا للمبادلات، وكانت له بمثابة قاعدة للإمداد ليس لتوريد الأسلحة والذخيرة فحسب، بل وكذلك لنشر الأخبار، والتي كان على علم بها من خلال الجرائد التي كانت تترجم بطلبه. أنظر: عبد القادر بوطالب، مرجع سابق، ص. 100
- 15- كتب اللورد بلمرستون، إلى قنصله بجبل طارق بتاريخ 06 أكتوبر 1840م، طالبا منه أن يبعث بمحتوى رسالته إلى مبعوث الأمير عبد القادر وجاء في رده شاكرا الأمير عبد القادر على عرضه ميناء بالتراب الجزائري، غير أنه بلغ أسفه الشديد وأن جلالة ملكة بريطانيا لا ترغب في الحصول على ممتلكات على ساحل البحر المتوسط لإفريقيا، كما أضاف أن الحكومة البريطانية لا ترغب في أن تتدخل في شؤون الدولتين الجزائرية والفرنسية خوفا على مصالحها كما اقترحت أن تبقى على الحياد وألا تنحاز إلى أحد الطرفين المتنازعين.
F - 3/43, O
- دور مراسلات المسؤولين الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر المعاصر
- مراسلات الدوق دي روفيكو (ديسمبر 1831 – مارس 1833) نموذجاً